

التوبة  
من خلال مثل الإبن الشاطر  
لوقا 11/15 - 32

الأب أغوسطين مهنا

## ملاحظات عامة:

المثل هو من نوع القصة. ليس من الضروري أن يكون الحدث الذي يُروى واقعياً. الغاية من المثل، هي إعطاء تعليم بحسب منهجية تصويرية، من أجل الوصول إلى أمثلة عملية.

الأمثلة التي أعطاها يسوع تهتم بالوجهة الحياتية العملية، أكثر منها بالأفكار والمبادئ. هي لتوحي للسامعين بمسلكية، أو لتلقنهم منهجية تصرف، أو أيضاً لتعبر عن تصرف الأب ويسوع بالذات تجاه الإنسان.

مثل الإبن الشاطر يتمحور حول محبة الأب للإنسان، في شخص الوالد؛ ويُعلم أن محبة الأب الأبوية تفوق كل مقاييس البشر، تفوق كل تصور بشري، بالصفح عن الإبن الأصغر. وإنه لن يدخل في منطق هذه المحبة إلا من أحب إخوته: عكس موقف الإبن الأكبر.

هي هذه المحبة، محبة الأب، التي تكشف عن ماهية الخطيئة وتلقي عليها أضواء... هي التي تكشف عن نتائج الخطيئة في حياة الإنسان الخاطيء وعن مصير هذا الأخير. هي التي تكشف أيضاً عن ماهية التوبة والدوافع إليها، وعن أن التوبة، توبة الإنسان، ممكنة فقط لأن الله محبة هو للإنسان وأمانة لعهد معه، لن تزعزعها خطيئة هذا الأخير. من ثم، فالتوبة الحقة تقوم بانفتاح القلب على محبة الاخوة.

## أولاً – الإبن الأصغر

1) ماهية الخطيئة (لوقا 11/15-13)

آية 11 "وقال: رجلٌ كان له إبنان".

آية 12 فقال أصغرهما لأبيه: يا أبتِ أعطني النصيبَ الذي يَخُصُّني من المال

فقسمَ لكلٍ منهما معيشتَهُ.

آية 13 وبعد أيامٍ غيرِ كثيرةٍ جمعَ الإبنُ الأصغرُ كلَّ شيءٍ له وسافرَ إلى بلدٍ بعيدٍ وبذَرَ

ماله هناك عائشاً في الخلاعة..."

### معطيات النص:

• مشهد أول: أسرة.

هذه، بمفهومها المبدئيِّ الصحيح، هي رمزُ الوحدةِ والتماسكِ بالمحبة، هي رمزُ العلاقةِ الشخصيةِ السليمةِ، العميقةِ، الصافيةِ، حيثُ العيشُ المشتركُ والعهدُ بالمحبةِ.

• مشهد ثانٍ: الإبنُ الأصغرُ يطلبُ حصتهُ من الإرثِ.

بالرغمِ من حقِّه بحصَّةٍ من الإرثِ، فهو بطلبه يُضمِرُ عن رغبةٍ في التفرُّدِ والإستقلاليةِ، تظهرُ لاحقاً. يريدُ أن يستقلَّ، أن ينسحبَ من الأسرةِ، حيثُ كلُّ شيءٍ مُشتركٌ بالمحبةِ. كأنه بذلك يُفضِّلُ المادَّةَ (حصتهُ في الإرثِ) على الرُّبُطِ العائليَّةِ، أي العهدِ بالمحبةِ. فهو يشطُرُ الإرثَ الماديَّ من حيثُ هو تعبيرٌ عن الشراكةِ الروحيةِ والتماسكِ الأسرويِّ، هذا الإرثُ الروحي.

• مشهد ثالث: الإبنُ الأصغرُ يجمعُ كلَّ شيءٍ له ويسافرُ

الإبن الأصغر يجمع كل شيء له ويسافر إلى بلد بعيد... يعني رفضه العيش في إطار الأسرة، التي قد يعتبرها أسراً. كأنه بهذا يرفض المحبة، الدفء العائلي... يرفض أن يكون موضوع محبة.

جمع كل شيء له وسافر إلى بلد بعيد... كأنه يرفض أن يبقى على شيء يربطه بالمنزل الوالدي. إنها الغربة عن المنزل الوالدي: (رغبة التفرد والاستقلالية). وهكذا، يشطر الأسرة، هذه الشراكة الروحية والعهد بالمحبة... يحدث فيها جرحاً، بعد أن شطر الشراكة المادية، من حيث هي تعبير عن الأولى.

• مشهد رابع: الإبن الأصغر يبذر أمواله عائشاً في الطيش

هو يسيء استعمال خيور أعطيت له، يفرط بنعمة وهبت له، وهي ليست من حقه وحده. إنه يستعمل خيوراً استعمالاً في غير مكانه.

• على ضوء ما تقدم، نتبين ماهية الخطيئة في الأفق المسيحي:  
إنها أنانية

من مظاهرها: التفرد وروح الاستقلالية، بما يخدم المصلحة الشخصية على حساب الآخرين. تفضيل المادة، بقدر ما هذه تخدم الأنانية، على العلاقة الروحية والإنسانية السليمة. إنعدام كل رؤيا روحية وإنسانية، وكل وعي لأبعاد الإنسان الروحية التي تربطه بالله والقريب.

إنها غربة

روح الأنانية، بقدر ما فيها من جذرية، تفضي إلى غربة، إلى انفصال وانقطاع... فغزلة (سافر إلى بلد بعيد). بالتالي، تصبح الخطيئة غربة عن الله وابتعاداً عنه.

إنها جرح لعلاقة شخصية

كَوْنَهَا غُرْبَةً عَنِ اللَّهِ، تُصْبِحُ الْخَطِيئَةُ خِيَانَةً لِعَهْدِ بَيْنِ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِ، تُصْبِحُ تَنْكُرًا لِهَذَا الْعَهْدِ بَلْ رَفْضًا لَهُ. وَمِنْ ثَمَّ، فَالْخَطِيئَةُ لَيْسَتْ أَوْلًا تَجَاوِزًا لِشَرِيعَةٍ، وَلَا لِمُتَلٍّ أَوْ قِيَمٍ شَخْصِيَّةٍ، بَلْ جَرَحًا لِعَهْدٍ وَلِرِبَاطٍ شَخْصِيَّيْنِ بَيْنِ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِ، فِي شَخْصِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ. هَذَا الْوَجْهَ لِلْخَطِيئَةِ يُعَاشُ فِي مَوَاقِفٍ مَعَ إِخْوَةِ الْمَسِيحِ، الْبَشَرِ... فَالْمَسِيحُ لَا يُعْقَلُ دُونَ إِخْوَتِهِ الْبَشَرِ. وَلَقَدْ تَعَوَّدْنَا أَنْ لَا نَعْرِفَ مِنَ الْمَسِيحِيَّةِ إِلَّا مَجْمُوعَةَ شَرَائِعَ، نَنْفِذُ بِهَا وَنَحْتَقِرُ الْإِنْسَانَ. فَالْمَسِيحِيَّةُ لَيْسَتْ مَجْمُوعَةَ شَرَائِعَ، بَلْ عِلَاقَةٌ حَيَّةٌ بِالْمَسِيحِ، مِنْ خِلَالِ وَجْهِ إِخْوَتِهِ الْبَشَرِ.

### إِنهَا تَفْرِيطُ بِالنَّعْمَةِ

الْخَطِيئَةُ هِيَ تَبْذِيرُ خَيْرٍ — عَلَى أَنْوَاعِهَا — أُعْطِيَتْ لِلْإِنْسَانِ، وَهِيَ لَيْسَتْ مِنْ حَقِّهِ وَحْدَهُ. هِيَ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ الْخَيْرِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، عِوَضَ تَوْظِيفِهَا وَتَشْغِيلِهَا فِي سَبِيلِ تَنْفَعِ الْآخَرِينَ وَتَفِيدِهِمْ.

### (2) نَتَائِجُ الْخَطِيئَةِ (لَوْقَا 14/15—16)

آيَةٌ 14 "فَلَمَّا أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَهُ حَدَثَتْ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مَجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ فَأَخَذَ فِي الْعَوَزِ.

آيَةٌ 15 فَذَهَبَ وَانْضَوَى إِلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَلَدِ فَارْسَلَهُ إِلَى حَقْلِهِ يَرعى

الْخَنَازِيرِ.

آيَةٌ 16 وَكَانَ يَشْتَهِي أَنْ يَمْلَأَ بَطْنَهُ مِنَ الْخَرْنُوبِ الَّذِي كَانَتْ الْخَنَازِيرُ تَأْكُلُهُ وَلَمْ يُعْطِهِ

أَحَدًا."

### مَعْطِيَاتُ النِّصِّ:

- مشهد أول: الإبن الأصغر يُنْفِقُ كُلَّ شَيْءٍ لَهُ فِي غُرْبَتِهِ. حَدُوثُ مَجَاعَةٍ شَدِيدَةٍ فِي بَلَدِ غُرْبَتِهِ. يَبْدَأُ فِي الْعَوَزِ.

- مشهد ثانٍ: الإبن الأصغر، في حال العوز، يلجأ إلى أحد أغنياء تلك المنطقة. هذا يستخدمه عنده أجيراً يرضى الخنازير.
- مشهد ثالث: الإبن الأصغر، في حالة بُوسٍ وفاقَةٍ، يشتهي الخرنوب الذي تأكله الخنازير، دون أن يُمكنه منه أحد.

### نتائج الخطيئة:

- الإفتقار والعوز

رأينا أنّ الخطيئة، هي في تبذيرِ خيورٍ أُعطيت للإنسان، هي في التفريط بالنعمة وفي استعمالها في غير موضعها. بالتبذير، يفقدُ الخاطيء نِعَمًا، يُبدِّدها، ومن ثمّ فهي لا تعود عليه بالخير والنفعة. فيُصبحُ فارغَ اليدين، مُعدَمًا، فيأخذُ بالإفتقار والعوز.

ولمّا كانت الخطيئةُ أيضًا غريبةً عن الله، انفصالاً عنه وعن الكنيسة (المنزل الوالدي)، فالخاطيء يُوجدُ بحكم المفصولِ والمقطوعِ عن مائتة الحياة. وبالتالي، يصبحُ عرضةً للعبَةِ الصِدْفِ والاقدار (مجاعة شديدة في البلد)، تتقاذفه وتتحكّمُ به.

ولقد ترجمت الكنيسة، في أجيالها الأولى، وضعَ الخاطيء الداخلي هذا، بما يُسمّى "الحُرْمَ الكنسي"، أي فصلُ الخاطيء عن الجماعة الكنسيّة، بيت الأب، وعن الإشتراك بالأسرار، كنز الحياة.

- العزلة

فلمّا أنفقَ كلَّ شيءٍ له... أخذَ في العوز...

كلامُ المثل هذا يُشيرُ إلى أنّ الخاطيء يُصبحُ في وضعِ المُهمَلِ، المترُوكِ والمعزُولِ: أصحابُ البارحة وأصدقائِها، الذين بذّرَ معهم أمواله خلال فترة السّعة والبحبوحة، تواروا وأهمّلوهُ أثناء الحاجة والعوز.

هنا تظهر الخطيئة في طبيعتها بريق سراب في البعيد، تملق يستحوذ على الإنسان ويتحكم به، يعده بالسعادة، يطغيه ويوقع به. إنها إغراء وإغواء. هذا المناخ من الأوهام لا يحل محل الإطار العائلي، ولا يلبث أن يتبدد، ليجد الخاطيء ذاته في حقيقته البائسة.

#### • ضياع وعبودية

نرى الإبن الشاطر، صورة الإنسان الخاطيء، يلجأ إلى واحد من أهل ذلك البلد يستعطفه، متوسلاً إليه ليستخدمه عنده.

من وضع البنوة (سيد حرّ مستقل في بيته)، صار الإبن في وضع العبد والأجير عند غرباء. جاء ينشد الحرية، فصار مستعبداً يستعطي عملاً. صار أيضاً في وضع المنبوذ: لم يستخدمه سيده في بيته، لم يعطه عملاً في الداخل (فهو غريب)، بل أرسله إلى حقله (بعيداً) يرعى خنازير... ففي هذا كله أقصى درجات الذل والإحتقار.

إذ فقد وضع البنوة، أضاع الإبن الأصغر حقيقته الكيانية والوجودية... جاور العدم. بالمقابل، فالعيش في الله، ضماناً للإنسان، لكيونته، لمقامه النبوي، وتحقيق لوجوده وحرّيته. وهكذا تظهر الخطيئة، كحنين إلى العدم، إلى اللاوجود.

#### • البؤس والألم

كان يشتهي أن يأكل من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله، ولم يعط له. هي الخطيئة، بل الشرّ العامل في الإنسان يبلغ بالإنسان إلى أقصى درجات البؤس. الشرّ العامل في الإنسان، إذ يجعل الإنسان ذاته أداة تنفيذ لأحكامه، هو يورط الإنسان في المصيبة.

ربما كانت نهاية المقطع، "ولم يعطه أحد"، والتي تعتبر ذروة البؤس بالحرمان، ربما كانت علامة إجابية، تتضمن فسحة رجاء مسيحي: الخاطيء، مهما كبرت خطيئته وعظمت، يبقى له مقدار كرامة إنسانية ترفعه أعلى من مستوى الحيوان: لم يعط له أن

يأكل من الخرنوب، مأكَلِ الخنازير؛ في الأكلِ شراكة... ولو خاطئاً، يبقى الإنسان أكرمَ وأرفعَ من أن يكون شريكاً للحيوان.

### (3) ماهية التوبة (لوقا 17/15 – 20)

آية 17 "فرجعَ إلى نفسه وقال: كم لأبي من أُجراء يَفْضُلُ الخبزُ عنهم وأنا هنا أهلكُ جوعاً.

آية 18 أقوم وأمضي إلى أبي وأقولُ له: يا أبتِ قد خَطِئْتُ إلى السماء وأمامك

آية 19 ولستُ مستحقاً بعدُ أن أُدعى لك إبناً فاجعني كأحد أُجرائك.

آية 20 فقام وجاء إلى أبيه..."

#### معطيات النص

- مشهد أول: الإبن الأصغر يرجعُ إلى ذاته، يفكر...
- مشهد ثانٍ: يتشاور مع ذاته، إذ يُقارنُ بين وضع الأجراء في بيتِ أبيه: يَفْضُلُ الخبزُ عنهم، وبين وضعه هو، يهلكُ جوعاً.
- مشهد ثالث: يُصمُّ على العودة إلى أبيه، يُهيءُ كلاماً يقوله له ويُسْتَدَلُّ منه أنه عائدٌ ليس بصفةِ الإبن، بل بصفةِ أجير.
- مشهد رابع: الإبن الأصغر على طريق العودة.

#### ماهية التوبة

- رجوع إلى الذات

وصلَ الإبن الأصغر إلى أقصى درجاتِ البؤسِ والألم. هو هذا الوضعُ بالذات الذي حملهُ على الرجوعِ إلى ذاته.

ماذا يعني الرجوعُ إلى الذات؟ ليكونَ هناك رُجوعٌ، كان لا بُدَّ من غيابِ مُسبقٍ. فمن ناحيةٍ سلبيةٍ، هذا يدلُّ على أنَّ الخاطيء، وبحكمِ خطيئته، يعيشُ ليس فقط في غُربةٍ عن الله بل عن ذاته أيضاً؛ فهو في وضعِ المُجزأ، المنقسمِ على ذاته والغريبِ عنها.

من ناحيةٍ إيجابيةٍ، الرجوعُ إلى الذاتِ يعني اللقاءَ مع الذاتِ، الحضورَ إليها ومواجهتها؛ فهو يعني وعي الحقيقةِ الذاتية. من هنا، يُصبحُ الرجوعُ إلى الذاتِ طريقاً إلى المعرفةِ الشخصية.

#### • تشاورُ مع الذات

بنتيجةِ الرجوعِ إلى الذاتِ، وعلى أساسِ إنقشاعِ في النفسيةِ ورؤيا واضحةٍ للحقيقةِ الذاتية، يتمُّ التشاورُ مع الذاتِ.

رَجَعَ الإبن الأصغر إلى ذاته، فَكَّرَ في ذاته وتشاوَرَ معها، لكنَّهُ ما وعى من وَضَعِهِ إلاَّ أَنَّهُ يَهْلِكُ جوعاً، وليس كونهُ في وَضَعِ البعيدِ عن أبيه وعن المنزلِ الوالدي. فَكَّرَ بالخبزِ الذي يَفْضَلُ عن الأجراءِ في بيتِ أبيه، ولم يُفَكِّرْ بأبيه.

بهذا، يهدفُ المثلُ إلى إعطاءِ تعليمِ مُعاكسٍ لتصرفِ الإبن الأصغر، قوامُهُ: الرجوعُ إلى الذاتِ والتشاوُرُ معها وَجَبَ أن يكشفَ للخطيء عن كونه في غُربةٍ عن أبيه السماوي، وعن أَنَّهُ، بخطيئته، خانَ عَهْدَ المحبَّةِ وتكرَّرَ لِعلاقةٍ شخصيةٍ.

#### • قرارٌ بالعودةِ والعزمِ على الإقرارِ بالخطيئة

فَكَرَّ الإبن الأصغر بالعودةِ وصمَّمَ لها... لكنَّ تصميمه هذا كان لكي لا يَهْلِكَ جوعاً، وليس لأنه بغيبابه وغربته عن المنزلِ الوالدي خانَ عَهْدَ المحبَّةِ وأحدثَ جرحاً في قلبِ

أبيه. ولمّا كان لا خلاص له من وَضَعِ البؤسِ إلاّ بالعودة، ومروراً بأبيه، هيأَ كلاماً حلواً يقوله لأبيه – إقراراً بالذنب – من شأنه أن يُثيرَ عَطْفَ أبيه عليه. فكَّرَ بالعودة بصفة أجير وليس بصفة الإبن. لكنّه جهَلَ أيضاً محبّة أبيه له، لا قياسَ لها، وهي فوق كل تصوّرٍ بشريّ.

هنا أيضاً، يهدف المثل إلى إعطاء تعليمٍ معاكسٍ لتصرفِ الإبن الأصغر: التوبة، إنّما هي الإنفاتة نحو الله، إنفتاحُ القلب على وجوده وسخائه عن إيمانٍ به ومحبّة، وليس عن طمعٍ بمصلحةٍ شخصيّةٍ أو منفعةٍ ماديّة. التوبة تنبعُ من الإيمان، هذا الإيمان الذي يعني للإنسان الخاطيء أنّ خلاصه وتبريره يأتيان من آخر، هو أبٌ كفوءٌ لأن يُحبب، أبٌ قلبه أكبرُ من خطيئة الإنسانِ مهما عظمت.

#### 4) محبة الأب (لوقا 15/20 – 24)

آية 20 "وفيما هو بعيد رآه أبوه فتحنن عليه، وأسرع وألقى بنفسه على عنقه وقبله.

آية 21 فقال له الإبن: يا أبتِ قد خطئتُ إلى السماء وأمامك ولستُ مستحقاً بعدُ أن أدعى لك إيناً.

آية 22 فقال الأب لعبيده: هاتوا الحلة الأولى وألبسوه، واجعلوا في يده خاتماً وفي رجله حذاءً.

آية 23 وأتوا بالعجلِ المسمّنِ وإذبحوه فناولوا ونفّحوا

آية 24 لأنّ ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد. فطفقوا يفرحون".

#### معطيات النص:

- مشهد أول: الأب يرى ابنه وهو بعيد يتحنن عليه، يسرع إلى لقائه، يُعانقه ويُقبله.

- مشهد ثانٍ: الإبن الأصغر يبدأ بقول ما هيأه من كلام لأبيه.
- مشهد ثالث: الأب يقطع الكلام على إبنه بعد إقراره هذا الأخير بعدم أهليته لوضع البُنة، غير تارك له المجال ليُقدم له عرضاً ليعتبره كأجير.
- مشهد رابع: الأب يُجيب على كلام الإبن بإعطاء عبيده جُملة أوامر، كانت لتعيد إلى الإبن وضع البُنة.
- مشهد خامس: الإحتفال بالعائد، ويأخذ طابعا مميّزا بذبح العجل المسمّن.

### محبة الأب

- ترقبٌ وانتظار

هنا، راح الأب يظهر في دوره الأبوي، في محبته الأبوية. فمذ أن ترك الإبن الأصغر البيت، والأب في حالة ترقب لعودته وانتظار. العلامة في ذلك، أن الأب رأى الإبن فيما هو بعيد. هذا، والإبن بقي "البعيد": سافر إلى بلد بعيد... وفي عودته، رآه أبوه وهو بعيد. هو الأب يختصر المسافة التي تفصل إبنه عنه.

ترقبُ الأب عودة إبنه يعني أن الأب لم يرفض إبنه الذي إبتعد، لم يتخل عنه ولم يهمله. يعني أيضا أن عهد المحبة ما زال من ناحية الأب قائما، وإن تنكر الإبن لهذا العهد وخانه.

في كل هذا صورة لأمانة الله الدهرية لعهد المحبة الذي قطعه مع الإنسان، صورة لمحبه الأبدية – هي غير المشروطة بمواقف الإنسان – التي تترقب أبدا عودة الخاطيء عن ضلاله. فالله لا يريد موت الخاطيء، بل أن يتوب ويحيا. أمانة الله هذه لعهد المحبة، والتي ما كانت خيانة الإنسان لتزعزعا، كانت لتشجع الإنسان على ترك الخطيئة، وعلى العودة إلى أحضان المحبة.

- غفران

عاطفة الحنان التي حرّكت أحشاء الأب عند رؤيته ابنه عائداً، هي ذاتها تشرحُ تصرفه، وفي هذا البرهان الأقوى على محبّته، لا قياس لها، وعلى غفرانٍ يرجح بكثيرٍ على الخطيئة.

هو الأب يُسرّع إلى ملاقاته ابنه. وقبل أن يتفوّه هذا الأخير بكلمة، يرمي الأب بنفسه على عنقه ويُقبّله. ثمّ، ودون أن يترك له المجال ليُكمل ما هيأ من كلام، يُعطي الأب الأوامرَ عبيدة... ويبدأ العيد.

• عهد جديد: محبة الأب، عهدٌ جديدٌ، خلقُ ثانٍ، نقرأه من خلال الرموز:

**الحلّة الأولى:** وضعٌ جديد بصورة لباس، ولادةٌ جديدة. الأبنُ الأصغر، وقد صار إلى وضعٍ أجير، تعرّى بفقدته البنوة. هو أبوه يرُدُّ له وضعه الأول. فالخاطيء الذي يحصلُ على الغفران، هو خليفةٌ جديدةٌ. بالغفران يُولدُ من جديد في عائلة الأب، الكنيسة.

**الخاتم:** علامة العهد، علامة الارتباط بالعهد والثبات فيه.

**الحذاء:** علامة بدء مسيرة جديدة، في وضعٍ جديد، هو الأمانة للعهد، عهد الشراكة بالمحبة. فدروبُ الخطيئة التي سلكها الابن الأصغر جرّحت قدميه بأشواك شقائها.

**ذبح العجل المُسمّن:** وليمةٌ وعيد. تعني الوليمة الشراكة بالمأكل والفرح. فالأكلُ من الخبز الواحد ومن الطعام الواحد، يوحدُ بين المشاركين. لقد عاد الابن الأصغر إلى العائلة وشارك بوليمة الفرح.

من الواضح أنّ السبب في هذا الإحتفال والفرح الكبيرين لن يُطلب في الدوافع التي اقتادت الابن الأصغر إلى البيت، ولا في صدق توبته التي هي موضوع شكّ. الدافع، كلُّ الدافع، إلى هذا الإحتفال والفرح الكبيرين هو في محبة الأب، لا قياس لها، والتي تفوقُ كلَّ تصوّرٍ بشري. فهل أدرك الابنُ الأصغر هذه المحبة وهل فتح لها قلبه؟ يبقى الجواب عند القارئ أو السامع.

لقد برهنَ الإبن الأصغر بما فيه كفاية عن أنه يجهلُ محبةَ الأب هذه، عندما صمّمَ على العودة إلى البيت، لا بصفةِ إبن، بل بصفةِ أجير. مسلكه السيء يحولُ دون شعوره بصفتهِ النبويّة، كما وأنه لم يُدرك تصرفَ الأب، هو الذي لم يتصرّف كابن.

## ثانياً – الإبن الأكبر

### مواقفه وشخصيته (لوقا 15/25 – 32)

آية 25 "وكان إبنه الأكبرُ في الحقل فلما أتى وقربَ من البيت سمعَ أصوات الغناء والرقص.

آية 26 فدعا أحدَ الغلمان وسأله: ما هذا؟

آية 27 فقال له: قد قدّم أخوك فذبح أبوك العجلَ المسمّن لأنه لقيَه سالمًا.

آية 28 فغضبَ ولم يُرد أن يدخل. فخرج أبوه وطفقَ يتوسّل إليه.

آية 29 فأجاب وقال لأبيه: كم لي من السنين أخدمك، ولم أتعدّ وصيتك قط وأنت لم تُعطني شيئاً لآتتعمّ مع أصدقائي.

آية 30 ولما جاء ابنك هذا الذي أكلَ معيشتك مع الزواني ذبحت له العجلَ المسمّن.

آية 31 فقال له: يا ابني أنتَ معي في كلِّ حين وكلُّ ما هو لي فهو لك.

آية 32 ولكن كان ينبغي أن نتتعمّ ونفرح لأن أخاك هذا كان ميّناً فعاش وكان ضالاً فوجد.

## معطيات النص

- مشهد أول: الإبن الأكبر يعودُ من الحقل. يقتربُ من البيت، يسمعُ أصوات الغناء، فيدعو أحدَ الغلمان مُستفسراً.

- مشهد ثانٍ: يَغْضَبُ عندَ معرفته السبب، ويرفُضُ الدخول.
- مشهد ثالث: يخرجُ الأبُ متوسلاً إليه.
- مشهد رابع: يوبّخُ أباه على ما فعلَ تجاهَ أخيه الأصغر. يدعو أباه "أنتَ" وأخاه "إبنك".
- مشهد خامس: جواب الأب، فيه يدعوهُ "إبني"، يُنوِّهُ له عن الشراكة التي بينهما، ويُطيه السبب في الإحتفال.

### مواقف الإبن الأكبر وشخصيته

- كان الإبن الأكبر يعملُ في الحقل. في بادئ الأمر نقرأ هنا ظاهرةً أمانة، ظاهرةً قناعةً وعيشٍ رضي: يعملُ لصالح البيت. تتبدلُ النظرةُ فيه من خلال تعبيرين متوازنين: يقول لأبيه: "أنتَ"، وعن أخيه: "إبنك"، ولدى معرفته سبب الإحتفال، يغضبُ ويرفضُ المشاركة في الفرح العائلي. في هذا دليل على أنه لا يعيش الشراكة مع أبيه، وعلى أنه يُبغِضُ أخاه. يسكن في البيت، لكنه يعيشُ عملياً خارجاً عنه، خارجَ الشراكة.
- وضعُ الإبن الأكبر، لا بل موقفه، يتّضحُ بجلاءٍ أكثر من خلال تأنيبه لأبيه: نراه يُناقشُ أباه كما لو كان هذا رجلاً غريباً عنه، وقد أساءَ إليه. يحسبُ عدد سنين قضاهَا مع أبيه، معتبراً ذاته أثنائها مُستخدماً عندَ أبيه، وليس إبناً في البيت. عيشه في البيت الواحد مع أبيه، والشراكة المادية بينهما، لم يُدخلاه في منطق المحبة والشراكة الروحية، ولا في منطق العلاقة الوالدية البنوية.
- يُنبهُ الوالدَ على أنه لم يتعدَّ له وصيةً قط. طاعتهُ لوالده، إذا جاز التعبير، تدخلُ في منطق الحساب. وبالتالي، فهي ليست بطاعة، لأنَّ هذه تقومُ على قاعدة المحبة، وهي تطعيمُ الإرادة الشخصية بإرادة الآخر، وفي هذا ملءُ الشراكة. فالطاعة التي تُبنى على قاعدة حسابية ليس بوسعها أن تدخلُ في منطق المحبة وامتزاج الإرادات.

يلومُ أباهُ كيفَ لم يُعْطِهِ جدياً يَنْتَعِمُ به مع أصدقائه. لم يقدر الإبن الأكبر يوماً أن يعتبرَ ذاته إبناً في البيت، بل إعتبرَ ذاته كغريبٍ أو كأجير... هو الأجيرُ يُعطى إكراميةً ("بخشيش")، بالإضافة إلى أجره. الأب، بالنسبة إليه، هو ذاك الطاغية الذي يقبُضُ بيدٍ من حديدٍ على كلِّ ما في البيت، ويتحكَّمُ به على هواه. يعوزه، في العمق، الشعور بحرية الأبناء ودالتهم.

ولمَّا جاء "إبنك هذا"...، لم يُقلْ "أخي". كما أنه في تأنيبه لأبيه لم يتلفَّظ، مرةً واحدة، بكلمة "أبي"، بل دائماً "أنت". يتَّهَمُ أباه بعدم المساواة: فلقد ذبحَ العجلَ المسمَّنَ إحتفاءً بابنه الذي بدَّدَ أمواله في حياة الطيش مع الزواني، بينما هو لم يحصل حتى ولا على جدي صغير. وهذا ما أثار غيظَهُ.

- بالنسبة إلى الإبن الأكبر، الأب، هو تماماً "الأخر"، السيّدُ غير العادل. أمّا هو، فهو العبدُ والمستأجر، وأخوه، إنسانٌ خارجٌ على الشريعة والقانون.
- في النهاية، ليس لهذا الأب من إبن. لا هذا ولا ذاك من الوكّدين هو إبن لهذا الأب.

### مَنْ يُمَثِّلُ الإبن الأكبر؟

يُمَثِّلُ فئةً تجعلُ من العيش خضوعاً لمجموعةٍ شرائعٍ وأنظمةٍ وترتيبات. هذه الفئة تكتفي بالشكليات، دون إمكانيّة خرق حائط الشكليات والولوج إلى الأعماق، إلى حيث الروح، إلى المحبّة، محبّة الله للإنسان، في صورة الأب لإبنيّه. لذا، وعند الشدّة، تشكُّ هذه الفئة وتجدّفُ على الله، كما كان تأنيبُ الإبن الأكبر تجديفاً على أبيه. هذه الفئة تعيشُ العهدَ بالشريعة، بينما المطلوبُ أن يُعاشَ العهدُ بالمحبّة.

### موقفُ الأب من الإبن الأكبر

- محبّةٌ وغفران

غضبَ الإبن الأكبر ولم يُردُّ أن يدخل. خرج الأب لملاقاته، متوسلاً إليه، كما ذهب لمُلاقاة الإبن الأصغر، إذ رآه وهو بعيد.

لم يُقاطع الأب إبنه الذي يؤنِّبه، بل استمع إليه، وفي عمقه كبيرُ محبةٍ وغفران. هذا، وقد رأينا كيف أنه قاطع إبنه الأصغر بعد إقراره بعدم أهليته لوضع البنوة.

ما أن انتهى الإبن الأكبر من تأنيب أبيه، حتى ناداه أبوه: "يا إبنى"... مشدداً بهذا على أنه هو أيضاً إبنه، وذاك "أخوه".

يسعى الأب إلى أن يُحسِّسه بالشراكة التي بينهما: شراكةً حياتيةً وروحيةً، "أنتَ معي في كلِّ حين"، وشراكةً ماديةً، "كلُّ ما هو لي فهو لك". يشرح له مبرراً الإحتفال بعودة أخيه.

• هل اقتنع الإبن الأكبر وقبِلَ بدخولِ البيتِ الوالدي ليُشاركَ في وليمةِ الأب؟

قصةُ الإبن الأصغر إنتهت بهذه الإشارة: فطفقوا يفرحون. أمّا هنا، فتجدُرُ الملاحظة إلى إنعدامِ أيّةِ إشارةٍ تدلُّ على تصرفِ الإبن الأكبر بعدَ كلامِ أبيه له. فهل دخلَ الإبن الأكبر البيت، أم أنه بقيَ متصلباً في رفضه؟

يبقى السؤال مفتوحاً، لأنَّ الجواب عليه يتعلّقُ بالموقف الذي يأخذه الناس، وبمقدارِ ما يرونَ في نواتهم صورةَ الإبن الأكبر، أم عكسها.